مجلـــــة الآداب للعلوم الإنســـانيـــة
المجلد الثامن العدد الثاني، ديسمبر
2025، ص ص223- 246
Arts & Humanities Journal
Vol. 8, Issue no. 2, December, 2025, pp.223-246
Issn (النسخة الالكترونية): 3006 -757X Issn (النسخة المطبوعة): 3006 -7561

المرجعيتان: الدينية والتراثية في نقد حسين بافقيه

علية أحمد طالع المرحبي
باحثة دكتوراه
aliah101433@gmail.com

الأستاذ الدكتور/ عبد الحميد سيف الحسامي (المشرف)
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك خالد
ahusami@kku.edu.sa

تاريخ استلام البحث: 9/ 12/ 2025 تاريخ قبوله للنشر: 14/ 12/ 2025
موقع المجلة: https://taiz.edu.ye/tujr/index.php/ahs

المرجعيتان: الدينية والتراثية في نقد حسين بافقيه[1]

علية أحمد طالع المرحبي

باحثة دكتوراه

أ.د/ عبد الحميد سيف الحسامي (المشرف)

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك خالد

ملخص البحث

يتناول هذا البحث حضور المرجعيتين الدينية، والتراثية(الأدبية واللغوية)، في الخطاب النقدي عند حسين بافقيه، بوصفهما ركيزتين أساسيتين في بناء رؤيته الفكرية والنقدية، وقد نهل بافقيه من هاتين المرجعيتين نهلًا واعيًا، فتجلّتا في خطابه النقدي، بوصفهما أفقًا معرفيًا حيًا، يثري القراءة النقدية، ويمنحها عمقًا حضاريًا وإنسانيًا، ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن آليات استحضاره للنص القرآني والحديث النبوي، والمدونات التراثية الأدبية واللغوية، باعتبارها مصادر معرفية وجمالية أسهمت في تشكيل رؤيته النقدية، وذائقته اللغوية، وتوجيه اختياراته المنهجية.

الكلمات المفتاحية: المرجعية، الدينية، التراثية، حسين بافقيه

The Two Frames of Reference: Religious and Cultural in Hussein Baqih's Critique

Aliah Ahmed Talea Almarhabi
Doctorate researcher - King Khalid University

Prof. Dr. Abdulhamiad Saif Alhusami
Professor of Literature and Criticism at King Khalid University

Abstract

This study examines the presence of the religious and heritage references (literary and linguistic) in the critical discourse of Hussein Bafaqeeh, considering them as two fundamental pillars in the formation of his intellectual and critical vision. Bafaqeeh drew consciously upon these two references, which manifested in his critical discourse as a living cognitive horizon that enriches critical reading and endows it with cultural and human depth. The study aims to uncover the mechanisms through which he invokes the Qur'anic text, the Prophetic Hadith, and the literary and linguistic heritage corpus, viewing them as cognitive and aesthetic sources that contributed to shaping his critical vision, linguistic taste, and methodological choices.

Keywords: Reference, Religious, Heritage (or Traditional), Hussein Bafaqeeh.

المقدمة

تعد المرجعيتان الدينية والتراثية من أهم المرتكزات التي تسهم في تشكيل الوعي النقدي، وبناء الخطاب الثقافي لدى الناقد العربي، إذ لا تنفصل الممارسة النقدية عن منظومتها المعرفية، التي تستمد كثيرًا من عناصرها من النص الديني، ومن التراث الحضاري للأمة، فالناقد يتحرك داخل إطار من المؤثرات الفكرية والتاريخية، تتداخل فيها المرجعية الدينية مع الموروث الأدبي واللغوي، لتكّون مجتمعة الإطار المرجعي الذي يوجه رؤيته للخطاب الأدبي، ويضبط مواقفه النقدية، وأدواته التحليلية.

وفي هذا السياق، يبرز الناقد حسين محمد بافقيه، بوصفه نموذجًا نقديًا تشكّل وعيه من خلال التفاعل الواضح مع المرجعيتين الدينية والتراثية، سواء من خلال استحضاره المباشر للنص القرآني، والحديث الشريف، أو من خلال استنطاقه الواعي للمدونة التراثية، وقد مثل النص الديني أحد المنابع الأساسية التي أسهمت في بناء ذائقته اللغوية والجمالية.

كما أن انتماء بافقيه إلى البيئة الحجازية ذات الخصوصية الدينية والتاريخية والثقافية؛ أسهم في تعميق هذا الارتباط بالمرجعية الدينية، ولا سيما ما يتصل بثقافة الحج، إلى جانب ذلك شكل التراث العربي بمختلف تجلياته الأدبية والنقدية واللغوية رافدًا أساسيًا في تكوين بافقيه الثقافي، وذلك من خلال انفتاحه على المدونات التراثية الكبرى، وانطلاقًا من ذلك يسعى هذا البحث إلى الكشف عن مظاهر المرجعيتين الدينية والتراثية في خطاب حسين بافقيه النقدي.

تعريف المرجعية في اللغة والاصطلاح

أ–لغة:

يعود أصل المرجعية في اللغة إلى الجذر (رجع)، ففي لسان العرب: "رجع يرجع رجعًا أو رجوعًا ورجعى ورجعانًا ومرجعًا ومرجعه: انصرف. وفي التنزيل ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰ ۝٨ ﴾ العلق [8] إي الرجوع والمرجع. وذكر عدة معاني متقاربة لمعنى رجع، فهي تأتي بمعنى ردَ وبمعنى عودة.[2]

وفي القاموس المحيط" رجع يرجع رُجوعًا ومرجعًا" وجاء أيضًا" رُجعى ورُجعانًا بضمهما: انصرف" وذكر أيضًا أنها تأتي بمعنى مردود ومعاودة.[3]

وإذا نظرنا للمراجع الحديثة، مثل المعجم الوسيط نجد تطورًا في دلالة (المرجع): في التنزيل العزيز: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ المائدة [105] ومحل الرجوع، والأصل، وأسفل الكتف، وما يرجع إليه من علم وأدب أو كتاب".[4] وتعد هذه الدلالة الأكثر وضوحًا للمرجعية.

ب- في الاصطلاح:

تعددت الاستعمالات؛ فالمرجعية تمثل "الفكرة الجوهرية التي تُشكل أساس كل الأفكار في نموذج معين والركيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها"[5] ويعرفها الدغمومي بأنها "الكيان المعرفي الذي يمنح الخطاب انتسابه إلى المعرفة، ويخصص موقعه فيها، وقدرته على توظيفها"[6].

وفي أي عمل نقدي وعلمي رصين تكون هناك عدة عوامل أدت إلى تشكله، فهو مبني على تراكم معرفي وفكري سابق لهذا العمل، حيث ينطلق الباحث الناقد من هذه التراكمات بأنواعها وهي التي تشكل المرجعيات النقدية التي تعرف بـ " الخلفيات الفكرية والمنابع الفلسفية التي يصدر عنها النقاد العرب المعاصرون في خطاباتهم النقدية، فلا يمكن لأي باحث أو ناقد أن ينطلق من العدم أو الفراغ"[7].

المبحث الأول: المرجعية الدينية

الإنسان مفطور على التدين كما في قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ الروم [30] فما جاء به ديننا الحنيف موافق للفطرة السوية، و هو مجبول على حبه والتمسك بتعاليمه، والدين مصدر قوة الفرد الذي يدفعه للبناء والإنتاج، والتزود بالعلم والمعرفة، في ميادين السباق الفكري، والحضاري عمومًا، ويعد النص الديني بنوعية القرآن الكريم والحديث الشريف؛ من أهم المصادر التي يعمد إليها الكاتب في الثقافة العربية، لما له من حضور متجذر في مختلف نواحي الحياة، الأمر الذي يجعل البعد الديني عاملا مؤثرا في التكوين الفكري والإبداعي للكاتب،

لقد مثل النص الديني، وفي مقدمته القرآن الكريم، أحد المرتكزات الأساسية التي قامت عليها أنماط التفكير والمعرفة، في مراحلها التأسيسية الأولى، فـ " لقد غدا القرآن

القطب الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية والعقائدية للمسلمين"[8]، فهو النص الأول لهذه الأمة والكتاب المعجز المبين، الذي أطّر نواحي الحياة كلها.

والنص القرآني مفتاح المعرفة، ومنهاج الحياة، والشريعة التي بها يستقر العدل، والقانون المنظم للسلوك، وفضله عظيم على الثقافة الإنسانية عمومًا، وعلى الثقافة العربية على وجه الخصوص، فالعديد من الحقول المعرفية كان هو مفتاحها، فمن هذا النص القرآني كان الانطلاق والانشغال به، والعكوف عليه: قراءة، وفهما وشرحا وتفسيرا وتدبرا وتأويلا، وكان سببًا في نشوء علوم كثيرة لها أثر كبير في توجيه الثقافة الإنسانية التي منها علوم الأدب والبلاغة والنقد[9].

كما أن نشأة الدراسات القرآنية عملت على لفت أنظار علماء البلاغة والأدب نحو قضايا مهمة، مثل: الإعجاز، والأسلوب، والتصوير الفني وغيرها، والقرآن الكريم هو المثل الأعلى في البيان والتعبير، وقد أسهمت الدراسات القرآنية في تطور حركة النقد العربي منذ البداية الأولى لتفسير القرآن والذي كان ملازمًا لحركة التأليف في الأدب عموما، وكانت هذه الدراسات العامل الأكبر في العناية بتدوين اللغة، وجمع الشعر، ورواية الفصيح[10]، ولها "أثر كبير في تربية ملكة النقد الأدبي ونشأته، فقد حاولت فهم النص، ومعرفة ظواهر الاستعمال اللغوي والتركيبي فيه، والإشارة إلى مافيه من وجوه المجاز... ومن هنا كانت البدايات الأولى لنشأة النقد العربي"[11].

ويظهر أثر القرآن في "إثارة بعض المسائل الفنية، الجمالية في الأسلوب وهو الأصل الذي قامت عليه دراسات السابقين، فكان له الفضل في توجيه دراسات النقد العربي في مراحله المختلفة. فقامت جهود العلماء في دراسات القرآن على جلاء تلك المسائل لحل اللغز الذي حير الناس وهو الإعجاز، وكانت محاولات شتى للوصول إلى حل له والاهتداء إلى تعليل، عللوه أولا بمسائل فلسفية كلامية. لكنه لم يستقم، وقامت حوله اعتراضات ومطاعن، واجتنبوا به ناحية بيانية، فتوصلوا إلى نتائج خدمت الأدب والنقد جميعاً"[12]. لقد أسهم القرآن في بنية الوعي النقدي، بما يتسم به من كثافة بيانية، وعمق دلالي، الأمر الذي أرسى لدى الدارسين والنقاد حسا لغويا وجماليا دقيقا، انعكس لاحقا في طرائق التحليل النقدي ومناهجه، ويعد حسين بافقيه واحدا من هؤلاء النقاد الذين تأثروا بهذا الأفق الثقافي، حيث نشأ في بيئة حجازية تتداخل فيها المعرفة الدينية بالثقافة الأدبية، مما أتاح له وعيا مبكرا بأثر النص الديني في بناء الذائقة النقدية.

والقرآن الكريم وسنة الرسول محمد –ﷺ– من أهم المرجعيات التي أفاد منها حسين بافقيه، وكان لها الأثر البارز في نتاجه الفكري، وتتجلى في خطابه من خلال:

أولا: الاستشهاد بالآيات القرآنية

والاستشهاد بالقرآن الكريم له تأثير قوي في المخاطب، وهو أقوى الحجج في سائر الخطابات، وفي أهمية الاستشهاد بالقرآن الكريم وبيان قيمته قال الجاحظ: "وكانوا يستحسنون أن يكونَ في الخُطَب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجُمَع آيٌ مِن القُرْآن الكريم؛ فإن ذلك مما يورث الكلامَ البهاءَ والوقارَ، والرقَّة، وسلَس الموقع."[13] فالاستشهاد بالآيات القرآنية هو إحياء للذات وانتماء لأعظم تاريخ وحضارة.

وعلاوة على كون الاستشهاد حجة قوية وبرهنة صحيحة على ما يقول، لما يمتلكه الخطاب القرآني من سلطة؛ فله دور آخر يتمثل في الدلالة على التجذر الثقافي وما يحمله من قيم اجتماعية ومفاهيم أخلاقية، والنص القرآني سيظل" دائمًا نصًا مقدسًا، يُتعلم منه ويحكم به، فهو منتهى البلاغة ومستقبل الكتابة، مهما كان نوعها وتاريخها"[14].

ومكة المكرمة البلد المبارك التي اختارها الله عز وجل لتكون البلد الحرام ومنسكًا وقبلة لعباده المؤمنين، وقد ميزها عن سائر بقاع الأرض، يأتيها القريب والبعيد، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ٩٧﴾ آل عمران [97] يتوافد إليها سكان الأرض من المسلمين بثقافاتهم المتباينة، ومشاربهم المختلفة، ولغاتهم المتعددة، وقد خصها بافقيه بكتاب (ذاكرة الرواق وحلم المطبعة)– ففي الأسطر الأخيرة من مقدمة كتابه يأتي بخلاصة ما يرمي إليه من تأليف هذا الكتاب، ألا وهو التأكيد على أن مكة المكرمة مدينة مطواعة، لا تنفر من الاختلاف والتعدد، يقول الناقد: "وحق لها أن تكون هي لا سواها المثل الأعلى للتعايش بين الثقافات والأفكار والأعراق، ولا غرابة في ذلك أو عجب ، فذلك خصيصة ثابتة في تكوينها ، دَلّ عليها القرآن الكريم في قوله الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ٥٧﴾ القصص [57]. وأحسب أنّ الثقافة والأفكار ضَرْب من تلك "الثّمرات" التي تجبى إليها. تلك الثقافة التي قد تختصم، حينًا من الدهر، ولكنها سرعان ما تتصالح على بطحائها،

ISSN (Print) 3006 – 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

وتجد الجديد ممسكًا بخناق القديم حتى ليبدوانِ وكأنهما من منبت واحد"[15]، فتلك الثمرات التي تُحمل إلى مكة المكرمة في نظر بافقيه ليست ذلك الغذاء الذي يأتي إليها من كل ناحية فحسب؛ بل هي–فضلا عن ذلك– العلم والمعرفة، والثقافات المختلفة، التي تتلاقى وتأتلف، وتغذي العقول، فمكة المكرمة فضاءٌ جامعٌ يتلاقى فيه كل ذلك، وتكشف قراءة بافقيه عن وعي تأويلي، يُحسن توظيف النص الديني في بناء رؤية ثقافية، حيث تتحول الآية القرآنية إلى إطار تفسيري لفهم التعدد والاختلاف الثقافي، بوصفه جزءًا من سنن الاجتماع الإنساني في هذا المكان وتوظيفه في بناء رؤية ثقافية، فموسم الحج على وجه الخصوص من أهم العوامل لنشر الثقافة، التي تعد كيانا حيا متحولا، يجد في المكان – بما له من مرجعية تاريخية ودينية– فضاءً رحبًا للتعايش والحوار، فرجالات الفكر والنهضة الإسلامية يلتقون في هذه البقعة الطاهرة، يتبادلون الأفكار والآراء، ومنهم من يتخذ مكة وطنا له.

وفي أثناء تناوله لأثر النزاعات السياسية على مكة المكرمة، حيث كان خلفاء الأقاليم كل يسعى إلى ضمها لمركز خلافته، إلا أن مكة المكرمة "قُضِيَ عليها أن تُخلص لمكانتها الدِّينيّة التي نص القرآن الكريم عليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴿٩٦﴾﴾ آل عمران [96]، وعزز ذلك، على طول التاريخ الإسلامي، صورتها المألوفة في أذهان النّاس، بعد أن كانت في القرن الهجري الأول بيئة خصبة لألوان مختلطة من السّياسة والدين والأدب والترف."[16] يؤكد بافقيه أن مكة المكرمة لها صورة رمزية، تاريخية، دينية، وروحية، مختلفة عما سواها، والله عز وجل اصطفى مكة، وجعلها مكانًا لأول بيت لعبادته، ومهدًا لنبيه، وأرضًا لرسالته، وفيها نزلت آيات الله، وبذلك استحقت صورة خاصة، ومكانة عظيمة لا تلغيها تلك الصراعات السياسية مهما احتدمت وطالت.

وعن سقوط الأتراك على يد الحسين وما تبع تلك الثورة من حركة واستنفار ثقافي في جوانب عديدة؛ كالشعارات التي هتف تلاميذ المدارس بها، وما كُتب في صحيفة القبلة من قول غير ما اعتادوا عليه، يقول بافقيه: " فالحسين يبعث إلى الشوام بكتاب يقول فيه: «نحن عرب قبل أن نكون مسلمين»! وشاعر الثورة اللبناني فؤاد الخطيب يُسمعه قصيدة يصف التُّرْك العثمانيين بأنَّهم حفدة جنكيز، ولعلهم قرأوا في صلاتهم قول

ISSN (Print) 3006 – 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ الحجرات [11].[17]

فالحسين مجّد العروبة أكثر من الإسلامية، وفؤاد الخطيب اتهم العثمانيين بما ليس فيهم، وهذا يتنافى مع الدين الإسلامي وأخلاقه الرفيعة، ويستشهد الناقد بهذه الآية لبيان ما لهذه السخرية من عواقب وخيمة تودي بصاحبها للهلاك.

وتظهر المرجعية الدينية المتمثلة في النص الديني من خلال بعض ما يكتبه الناقد في عملية **تناص** مع القرآن الكريم أو السنة النبوية، وهي عملية تأخذ منحى مباشرًا من خلال: "اجتزاء قطعة من النص أو النصوص السابقة ووضعها في النص الجديد، بعد توطئة لها مناسبة تجعلها تتلاءم مع الموقف الاتصالي الجديد، وموضوع النص"[18].

وقد يأتي ذلك في عناوين مؤلفاته؛ فعنوان كتابه (أفئدة من الناس: فصول في أدب الحج وثقافته) فيه تناص مع الآية القرآنية ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ ابراهيم [37]، وفي هذه الآية يتجلى دعاء نبينا إبراهيم – عليه السلام– لهذه الأرض المباركة، ليُشد إليها الرحال من كل حدب وصوب، وقد كانت العنونة متضمنة إيحاء عميقًا يحيل على المنظومة الدلالية للآية الكريمة، وإحالاتها المكتنزة، ومسيرة البيت العتيق في ذاكرة التاريخ، وارتحال الأفئدة إليه عبر الزمن، وهذا ما يتضح في كتاب حسين بافقيه (أفئدة من الناس) الذي يستحضر فيه الناقد عددًا من كتب الرحلات إلى الحج، ليبرز أثر الموسم الديني العظيم في وحدة الأمة الإسلامية، وثقافتها، "ذلك أنَّ الرحلة إلى البيت العتيق كانت مُكَابَدَةً روحية أحدثتْ تَحَوُّلاً عظيمًا في كوكبة واسعة من الأدباء والمفكرين والمثقفين في العصر الحديث، كما أثارت، مِنْ قَبْلُ، أَلوانًا مِنَ الشَّوق والتوق في قُلُوب كلِّ مَنْ قَصَدَ تلك الأمكنة الشريفة من العلماء والأدباء، والرحالين، وسِوَاهُمْ مِنَ المتصوفة والزهاد"[19]، فقد لاقت مكة إقبالًا واهتمامًا منقطع النظير عند الكثير من المؤلفين، في شتى المجالات، والناظر في (معجم ما أُلف عن مكة عبر العصور) للدكتور عبد العزيز راشد السنيدي[20]؛ يرى هذا

الاهتمام الكبير في تلك المصنفات المتنوعة، وهذا ما يؤكد أهمية مكة المكرمة ومكانتها المتفردة عند كل مسلم.

ومن أثر تلك المرجعية التي يتناص فيها مع آيات القرآن الكريم؛ أنه **جعل بعض العناوين الفرعية** في كتبه آيات قرآنية، وذلك لمناسبتها الموضوعَ المطروق، فمثلًا عندما تناول موضوع مقدمة حمزة شحاته لكتاب (شعراء الحجاز في العصر الحديث) لعبد السلام طاهر الساسي –التي أنكر كتابتها حمزة شحاته، وما تلا هذا الإنكار من خصومات ومعارك نقدية– وقد تتبع بافقيه تلك الخصومات وعبر عنها باقتباسات من النص القرآني؛ فأحد عناوينه: "أليس الصبح بقريب...!"[21]، حيث أوشك بافقيه تحت هذا العنوان أن يكشف حقيقة كاتب تلك المقدمة، وجاء العنوان الثاني: "الآن حصحص الحق..!"[22] ، دلالة على التيقن، والوصول للحقيقة، حيث يتتبع كل ما كتب، ويسوق تلك العناوين للدلالة على الوصول إلى الصواب، وحسن اختيار هذه العناوين ومناسبتها لما طرحه بافقيه؛ يعد لجوءًا حكيمًا إلى المرجعية الدينية المتمثلة في النص القرآني، حيث يستدعي هذه الآيات الكريمة وما فيها من دلالات ليأخذ منها ما يناسب موضوعه، ويعزز سلطة خطابه.

ومن أثر النص القرآني ما يأتي في متن الكتاب، ومنه ما جاء في ديباجة كتابه "العيش في الكتابة" الذي اختص به عبد الله عبد الجبار، يقول: "لقد جعلت أيها الشيخ الجليل الحياةَ شاقةً عليَ، ولقد كلفت من عَرَفَكَ معرفتي بك، من أمره شططا، وكنت المثل الأعلى إباءً وشموخًا وأنفةً ومروءةً، فما كنت، أيها الأستاذ الجليل، غادرًا، ولم تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير..."[23]، وتتجلى التعبيرات المنسابة في متن نصه مغموسة بالإحالات القرآنية (من أمره شططًا) (ولم تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير) في متن نصه، وهي تعبيرات تجعل السياق متضمنًا سياق تلك الآيات، بدلالاتها المكتنزة، ويصبح لدينا نصوص تتداخل دلالاتها، ويتخصب اللاحق بالسابق.

إن المرجعية الدينية المتمثلة في النص القرآني لم تأت على وجه واحد عند الناقد، بل جاءت بعدة وجوه وذلك تبعًا لما يخدم الفكرة التي يهدف إليها الخطاب، فقد تأتي شواهد تدعم ما يريده، أو قد تأتي بتغيير على مستوى الدلالة والتركيب، من خلال عملية التناص.

ثانيا: السيرة النبوية:

إن السيرة النبوية لها أثرها العميق في قلب كل مسلم، وعن طريقها يصل المسلم إلى النموذج المتكامل للإسلام، وشخصية محمد صلى الله عليه وسلم، هي الشخصية الوحيدة الممثلة للقدوة الحسنة، في تاريخ البشرية أجمع، وسيرته المباركة مثلت منهج متكامل للحياة، وبطبيعة الحال كان لسيرته صلى الله عليه وسلم أثرٌ بارزٌ عند بافقيه، يظهر هذا من خلال قوله:" لا أزال، إلى يوم الناس هذا، أُمَنِّي النَّفس، بأن أزور بلدة «كُليَّة»، غير بعيد من جدة، لأنها وردت في شعر نُصيب، ولأنَّ صاحب الأغاني: قال: إنَّها بلد نُصَيْب وكثير عزة، فما بالك حين ترتقي تلك الأمكنة والدُّرُوب والمسالك، باتصالها بسيرة النبي ﷺ والصدر الأول مِنَ الإسلام؟! فأتخيل مقام النبي ﷺ فيها، ومروره بها، وأكاد أُحِسُّ أنَّ هذا الجبل، وتلك الثنِيَّة يود أحدهما لو يبوح بما استقرَّ في ذاكرته، وأكاد أتخيلها كائنًا حَيًّا له فؤاد وعاطفة ولسان، وأجِدُنِي أُرَدِّد بيتًا بديعا لعبد الله بن خميس:

أَيُّ شَيْءٍ تُبِينُهُ لَوْ تَقُولُ؟"[24] لَوْ أَبَاحَتْ بِمَا لَدَيْهَا الطُّلُولُ

لهذه الأمكنة دلالة دينية وروحية، فهذه الصياغة الأدبية الراقية والعبارات الأنيقة، نابعة من نفس تتجذر فيها بعمق سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا التجذر العميق له دور بارز في رؤية بافقيه، وفي تشكيل الخطاب لديه، وهو خطاب يعيد إنتاج دلالة الأماكن التي تضمنتها السيرة بنفس أدبي، ينفخ روحًا في المكان، ويتماهى معها لا بوصفها جمادات صماء، بل بوصفها كائنات حية، تبوح، وتحادث، تسرد الذكريات، وتنطق بكل هواجسها المختزنة. ولعل استدعاء الشاهد الشعري يعزز مسار الدلالة، ويغنيها بصوت جديد.

ومن هذا الارتباط الوجداني العميق بالمكان المقدس، تتجلى رؤية بافقيه الروحية والجمالية في تعامله مع المكان، حيث تفتح أفقا قرائيا لفهم اهتمامه بأدب رحلات الحج، إذ وجد في هذا الأدب مجالا خصبا لتتبع تمثلات المكان المقدس في الوعي الثقافي، ولم يكن المكان في البيئة الحجازية التي نشأ فيها حسين بافقيه، إطارا جغرافيا فحسب؛ بل يعد فضاءً مقدسا فاعلا في تشكيل الوعي، ومؤثرا في بناء الرؤية الفكرية والنقدية لديه، إذ تمثل هذه البيئة مهبط وحي الرسالة المحمدية، ومهد الدين الإسلامي، لذلك اجتمع

لهذا المكان خصيصتان عند الناقد: الحاضن والقدسية الدينية، فهناك علاقة وطيدة بين الهوية (السعودية) وقدسية المكان، ومن هذه القدسية اهتم الناقد حسين بافقيه بالثقافة الإسلامية عامة، وثقافة الحج خاصة، اهتماما بالغًا، إيمانا منه بأن الحج هو الموسم الذي به يتحقق مفهوم الأمة الإسلامية، ولهذا الاهتمام أسباب عدة أهمها: أن مدينته جدة هي محل نزول الحجاج بحرًا وجوًا، ولا شك أنه شاهد زحف الجموع الغفيرة لتأدية فريضة الحج، فكان يعي ما لهذه البيئة من أبعاد دينية، وتاريخية، وثقافية، إضافة إلى رئاسته لمجلة الحج والعمرة[25]، والتي كانت فترة مهمة في حياة الناقد، فمن خلالها زاد اتصاله بكتب الرحلات وعكف على قراءتها، حيث كان الحج مددًا لهذه الكتب. يقول: "عهدي بأدب الحج وثقافته قديم، فالرّحلات الحجازيَّة كانتْ، ولا تزال، جزءًا مِنْ قراءاتي أتتبَّع القديم مِنْها والجديد، ولَمَّا ساقني القَدَر إلى العمل رئيسًا لتحرير مجلة الحج والعُمْرة، وأردْتُ أَنْ أَعْرِف موقع الحجّ في حياة المسلمين = اتّصلتْ أسبابي بجمهرة واسعة مِنَ الكُتُب، كانتِ الرّحلة الحجازيَّة واسطة عِقْدها، وامتدت إلى مسائل مختلفة، بعضُها اتصل بطرق الحجّ ومسالكه، وبعضُها اتصل بتاريخ الحجّ..."[26]، فتجربة بافقيه مع أدب الحج لم تكن مجرد مطالعة سطحية، بل شكّلت إطارًا معرفيًا شاملًا، كان له التأثير العميق على وعيه النقدي، فقراءة الرحلات الحجازية القديمة والجديدة؛ مكنته من الاطلاع على تعدد التجارب الأدبية والفكرية المرتبطة بالحج، ويُظهر موقعه بوصفه رئيسًا لتحرير مجلة الحج والعمرة؛ كيف مكنه الانغماس في البيئة الثقافية الحجازية من الجمع بين المصادر التراثية، مع التجارب المعاصرة، وقراءة الحج ليس بوصفه حدثًا دينيًا، بل بوصفه ظاهرة ثقافية متكاملة، تشمل الأدب والتاريخ والفن واللغة، وهذا الانفتاح على مصادر متعددة –الرحلات ، الكتب التاريخية، الدراسات المعاصرة–، تسهم بطبيعة الحال في تشكيل الوعي النقدي، فالحج بالنسبة له ليس موضوعًا أدبيًا فحسب، بل مدخلًا لفهم الخطاب الثقافي والإنساني.

فالخطاب النقدي مرتبط بالمعرفة والسلطة ومختلف الرؤى المؤثرة في تكوين الناقد، وسلطة الدين الإسلامي لها أثرها الكبير في توجيه الخطاب على سائر المستويات والأصعدة.

إن أكثر كتب رحلات الحج أثرًا في الناقد من الناحية الدينية والروحية هو كتاب **(كأنك معه، صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم)** لعبد الوهاب بن ناصر الطريري،

"والحق أنَّ الكتاب تقرأه فيغلبك الدمع، وأنت تشاهد المشاهد التي وقف بها النَّبِيُّ ﷺ وَتُحِسُّ الكلمات حارة. وعلى ما انطوى عليه من ألوان الوجد والشوق، فليس أبلغ، ألما، مِنْ تلك القطع الرائعة التي أراد فيها عبد الوهاب الطريري لعقله أن يتخيل حال النَّبيّ ﷺ لَمَّا أَتَمَّ حَجَّه، فيتخيَّلها مزيجًا مِنَ المشاعر تمور في ذلك القلب الكبير المنير، هي مزيج من مشاعر الفرح بالإتمام ومشاعر اللوعة بالوداع»، وتكاد كلمات الطّريريّ تأخذني إلى السنة العاشرة من الهجرة، وأنتخب مِنْها مشهدًا مؤثرًا مبكيًا، مشهد الوداع؛ وداع الكعبة المشرفة، ووداع مكة خير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله».

كتب بافقيه العديد من الصفحات عن هذه الرحلة، واختزلت بعض السطور قراءته لرحلة الطريري، حيث يستحضر بافقيه تلك الأحداث الدينية العظيمة، التي منها خطبة الوداع، تلك الخطبة العظيمة، الجامعة، والتي بها لخص الرسول الكريم تعاليم الدين الإسلامي وأحكامه، فيحس الناقد أنه مع النبي وصحبه في تلك السنة، حيث البكاء والوداع، وهذا من جميل أثر تلك المطالعات في خطاب الناقد، وفي هذا الجزء المقتبس تناص الناقد مع حديث رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام: "والله إنك لخير أرض، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت"[27]. ونلحظ أنه يتحدث عن السيرة، أو عن الخطاب الذي يعيد إنتاج السيرة، بخطاب فيه من المتعة التي تجعل متعة الكتابة متعة مركبة.

استحضار الخطاب التشريعي:

يتجلى استحضار الخطاب التشريعي عند بافقيه من خلال توظيفه الواعي للمدونات الأدبية، والتراثية بوصفها حوامل ثقافية استوعبت أحكام التشريع ومقاصده، وأسهمت في نقلها من خلال السياقات الأدبية والثقافية. وقد تضمنت بعض نصوص بافقيه إحالات لنصوص تشريعية، ومنها ما أورده في **كتابه (طه حسين والمثقفون السعوديون)** عندما عرض مقالة لأمين مدني نشرها في مجلة المنهل 1367هـ علق فيها على ما كتبه طه حسين في كتابه **(الفتنة الكبرى)** عن "الرقّ" وشكه في الأمر ومحاولة تشكيك قرّاءه في التشريع الإسلامي للرق، يقول أمين مدني: "والتشريع الإسلامي لا يقبل الشك، ولا يقبل المجاملة. فالإسلام قد أقرّ الرق وقد شرع له قواعده بحكم صريح لا يقبل التأويل أو التعديل وليس للحوادث والمحن والخطوب التي لعبت دورها في حوادث الإسلام السياسية

أي تأثير على جوهر التشريع الإسلامي وروحه فسيان كانت هاتيك الحوادث أو لم تكن، فالتشريع الإسلامي قد ركّز على أساس ثابت، وانتهى إلى القمة التي ما بعدها سمو وليس وراءها تهذيب أو إصلاح أو تحليل أو تحريم"[28].

وامتدادًا لذكر طه حسين؛ يورد بافقيه في كتابه **(كلكم يطلب صيد)** في مقالته المعنونة ب" حفرة الشيخ طه" رأيًا لطه حسين في مسألة تخص الدين، في مقالته "حق الخطأ" والتي فيها دافع عن شيخ أزهري ساقه اجتهاده إلى رأي لم يقبله مشايخ الأزهر، بل وثاروا به " فأنشأ طه حسين في كلام طويل يلتمس للشيخ الأعذار، وأنَّ الشَّيخ اجتهد رأيه، ولم يُصِبِ الحقَّ، ولكنَّه لم يتعمَّد خروجًا على الدين، وكل ما هنالك أنه اجتهد فأخطأ، وليس على مَن اجتهد حرج في أن يخطئ، وما أكثر المجتهدين الذين أخطأوا فلمْ يَقْضِ عليهم أحد بالكفر، ولم يتهموا بالخروج مِنَ الدِّين"[29]

وفي ثنايا حديثه عن مكتبة تهامة وما يقرأه فيها من أسماء الأدباء والعلماء والمؤرخين، كان أكثر اسم يستجلب نظره هو محمد حسين زيدان، يقول متحدثًا عن نفسه: "ألم يكن ليشاهده قبيل مغرب كل يوم من أيام شهر رمضان المبارك، يحدثهم، في حديث تلفازي، عن صحابي كريم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وكان بإمكان الشاب أن يفوته كل شيء إلا ذلك الحديث التلفازي، فأحبَّ الشَّيخ، وعده أستاذًا له، يزجي إليه المعرفة كل يوم، ويشده إلى دينه وتراثه وثقافته وتاريخه..."[30]، فقد ارتبط هذا الاسم عنده بثلاث فضائل دينية: شهر رمضان، وصحابة رسول الله، ومعلم يعطيه قدرا وافرا من المعرفة المتمثلة في الدين الإسلامي.

وتوظيف بافقيه المرجعية الدينية في خطابه أضفي سموًا ومكانةً لهذا الخطاب النقدي، إذ يمنحه بعدًا قيميًا وثقافيًا، يتجاوز القراءة الجمالية المحضة، ويربط الممارسة النقدية بسياقها الحضاري والإنساني الأوسع، وذلك يعزز من مكانة هذا الخطاب ويكسبه عمقًا وتأثيرًا في المتلقي.

المبحث الثاني: المرجعية التراثية (الأدبية واللغوية)

يعد التراث بما يحمل من فكر أداة ربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا الربط لا يعني التكرار فحسب، إنما هو ذلك التراكم المعرفي الذي أُنتج عبر السنين، والتراث العربي" يتناول كل ما كتب باللغة العربية، وانتزع من روحها وتيارها قدرًا،

بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه"[31].

إن الإرث الفكري الحضاري الجيد؛ هو أداة تقدم أي أمة، والعامل الفعّال في تطويرها وتقدمها، وامتداد أصولها، والناقد المعاصر من النخبة المثقفة الذي يعوّل عليه كثيرا في رفد المشهد النقدي والثقافي، لذلك من الأهمية بمكان العودة إلى الجذور الثقافية للتراث، وإحياء القيم الفكرية الأصيلة، وعلى الناقد المعاصر البحث في علوم اللغة العربية المتنوعة: كالبلاغة والنحو والأدب العربي القديم؛ لأن" دراسة التراث القديم يؤثر في الارتقاء بلغتنا الأدبية والحفاظ على أصالتها؛ كما يؤدي إلى استمرار إفادتنا من النتاج الفكري المكتوب بالعربية الفصحى في حياتنا المعاصرة، وإهمال تراثنا الأدبي القديم يقطع صلتنا بالقرآن الكريم، والحديث والشريف، ويمكّن للهجات العامية من النمو على حساب الفصحى"[32]، ومن غير المجدي إغفال التراث، أو تبني حداثة ما باعتباره من المعطيات ذات الصلاحية المنتهية، و" إن رفض التراث باسم المعاصرة أمية ثقافية اعتل بها نقدنا العربي الحديث والمعاصر"[33].

والعودة للتراث ومحاولة استنطاقه والنظر إليه من زوايا متعددة أمر في غاية الأهمية؛ وذلك للبحث عن البعد التاريخي للمنجز المعاصر والكشف عن تميز هويته وأصالتها، وحضور التراث في المشهد المعاصر –إبداعي أو نقدي– هو تأصيل للهوية التي تعتز بها كل أمة.

لقد ارتبط بافقيه بالتراث العربي القديم منذ وقت مبكر في حياته، وذلك عند زيارته لأول مرة مكتبة في باب شريف، كان كل ما فيها من كتب– تقريبا– كتبا تراثية، وسيطرت الثقافة العربية التراثية على تلك المرحلة المبكرة من حياته، وأول كتاب اقتناه ديوان النابغة الذبياني، رغم عدم إدراكه الكافي لسبب اقتنائه، واقتنى بعد ذلك كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، والذي دفعه لاقتنائه؛ المسلسل التاريخي المستوحى من هذا الكتاب، حيث كان له التأثير الكبير في الناقد.[34]

وللمرجعية التراثية أثرها الواضح في خطاب الناقد، حيث استثمرها واستند عليها في كثير من كتاباته، ويتجلى تأثره بالتراث في استدعائه الواعي عددًا من المصنفات التراثية الكبرى، التي شكلت مرجعيات معرفيه وجمالية في تكوينه النقدي، ومن أبرزها:

أولًا– المرجعية الأدبية:

تجلت في مؤلفات بافقيه المرجعية الأدبية من خلال عدد من المحاور لعل أهمها:

1– الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني:

فقد جعل بافقيه رأيًا للقاضي الجرجاني ورد في كتابه الوساطة مفتتحًا لكتابه **(عطر النقد)**، ، يقول فيه: " وأنتَ قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن، وتَسْتَوْفي أوصاف الكمال، وتَذْهَب في الأَنْفُس كُلَّ مَذْهَب، وَتَقِف مِنَ التَّمَام بكل طريق، ثُمَّ تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن، والتئام الخلقة، وتناصف الأجزاء، وتقابل الأقسام؛ وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأَعْلَق بالنفس، وأسرع مُمَازَجةً للقلب؛ ثُمَّ لَا تَعْلَم – وإِنْ قاسَيْتَ واعتبرْتَ، ونَظَرْتَ وفَكَّرْتَ – لهذه المَزيَّة سببًا، ولِمَا خُصَّتْ به مُقْتَضِيًا..."[35] وكتاب القاضي الجرجاني من المدونات النقدية التي استوعبت الخصومات النقدية في القرن الرابع الهجري حول المعنى، وفي خطابه هذا إدراك لجمال الأساليب، وهذا الإدراك يكمن في قضية معينة، وهي قضية " الذوق".

والأمر الذي استدعى وجود ذلك المدخل في **(عطر النقد)** دليل موافقة بافقيه لرأي الجرجاني وتأكيد وجهة نظره التي جعل مدارها على (الذوق) والتركيز على التقابل المعرفي بين النقد العربي المعاصر، وما هو كائن في التراث العربي القديم، ويتضح ذلك في مقدمة الكتاب نفسه عندما يتحدث عن القضية نفسها قائلًا: " إننا لنقرأ في النقد المنهجي عند العرب أَنَّ السَّنواتِ التِّسْعَ الَّتي أنفقها مندور على ضفاف السين، لمْ تُخْرِجْه عَمَّا اشترطَه نَفَرٌ مِنْ نَقَدَة الكلام في تراثنا، وإِنَّنا لَنَجِدُه حَفِيًّا بذلك النَّقْد الخالص العروبة، مِمَّا له أثر واضح فيما أنشأه الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبُحْتُرِي، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخُصُومه. وسواء مال مندور إلى نقد العرب، أوْ جَنَحَ إلى نَقْد الفرنسيّين، فإنَّه في كلتا حالتيْه وَفِيٌّ لمنهجه في الذوق، ذلك المنهج الذي يميل إلى براءة الفن وطفوليته..."[36]، يرتكز محمد مندور في دراسته في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) على الناقدين الآمدي والجرجاني، وكلاهما يعتمد في منهجه على الذوق والخبرة والدربة، وهي الطريقة التي أكدها بافقيه، والتي ارتضاها في نقد الأدب قائلًا: " فقد آن للنقد الأدبي أن يعبر عن الخبرة، والبصيرة، والذوق، فالمنهج ليس شيئًا مستعارًا، إنما هو جماع كل أولئك، ولا غنى للنقد الأدبي عن أن يكون أدبًا نقديًا، إن أراد ناقد الأدب أن يكسب قارئه ولا يخسره"[37].

وبافقيه أكد أن هذه الآراء النقدية ذات أهمية ومكانة في فكرنا، وموروثنا النقدي العربي، فقد نظر إليها بعمق واتساع .وهذا ما يتضح في قوله :" الحق أن هذا المنهج الذي ارتضاه محمد مندور، ومن قبله الجرجانيان؛ عبد القاهر وعلي بن عبد العزيز هو عندي أدنى إلى طبيعة النقد الأدبي، وأقرب وشيجة إلى الآثار الأدبية، وعلى ذلك كان نقد الرواد، وهم، مهما تباينوا في القراءة والتفسير والتأويل، قريبو عهد بمذهب لايزال له، حتى ذلك الزمن من يرعاه ويتعهده، وقوام ذلك المذهب على الذوق، لكنه ذلك الذوق المدرب الذي لا يجافي اللغة والثقافة، وأصحابه أشد القوم فقهًا بالأدب؛ شعره ونثره، عرفوا مضايق الشعر وأدركوا شجاعة العربية"[38]. ويعد حضور التراث في المشهد العربي المعاصر للإبداع؛ تأصيل للهوية من خلال العودة إلى قراءة ذلك التراث وفهمه واستنطاقه، وهذا ما يتجلى في موقف بافقيه من قضية الذوق، " ومن المؤكد أن كل قراءة تكشف عن عالم قارئ النص التراثي، بقدر ما تكشف عن عالم النص المقروء"[39]،

2–طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، والعمدة لابن رشيق، ويتيمة الدهر وغيرها

فقد استعرض بافقيه في كتابه **(العيش في الكتابة)** جذور نظرية نقدية معاصرة، في التراث، وهي "النظرية البيئية" ومنشأ المذهب الإقليمي في دراسة الأدب، وذلك بتقصي أصل تلك النظرية، فالبيئة لها سلطانها الواضح ليس على إبداع النصوص فحسب، بل يتعدى ذلك الأمر إلى الطريقة التي تُنقد بها تلك النصوص، يقول: "ومِنَ الحَقِّ أَنَّ أَثَرَ البيئة في اللغة والأدب والثقافة كان قدِ اخْتَصَّه النقاد العرب القُدَامَى بِفَضْل عناية. وإنَّنا نَجِد ذلك في كلام لابن سلام في طبقات فحول الشعراء، والقاضي الجرجاني في الوَسَاطَة بَيْنَ المتنبي وخُصُومه، وابن رشيق في العُمْدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده؛ والثعالبي في يتيمة الدهر في محاسن أَهْل العَصْر؛ والباخَرْزِي فِي دُمْيَة القَصْر وعُصْرة أهل العَصْر؛ والشَّنْتَرِينِيّ في الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة؛ وعماد الدين الأصبهاني في خَريدة القَصْر وجريدة العصر؛ وابن سعيد الأندلسي في المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب والمُشْرِقِ فِي حُلَى المَشْرِق؛ وشهاب الدين الخفاجي في رَيْحانة الأَلِبّا وزهرة الحياة الدُّنْيا؛ والمحبي في نَفْحَة الريحانة ورشحة طلاء الحَانَة؛ والمَقَرِيّ فِي نَفْحِ الطِّيب مِنْ غُصْنِ الأندلس الرطيب؛ وابن معصوم في سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر. لكنَّ مِنَ الحقِّ أنَّ هذه الأقوال، مهما عَلَا شَأْنها، لمْ تَتَحَوَّلْ إلى نظرية ينتحلها النقاد والدارسون إلا في العصر الحديث"[40]. فالناقد بافقيه يؤكد من خلال هذه القراءة

ISSN (Print) 3006 – 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

العميقة لتلك المدونات التراثية؛ مدى تفاعل النقاد العرب القدامى مع الرؤية البيئية، وتبيان أثر البيئة في الإبداع، وإن لم تكن متبلورة بالصورة الواضحة، فهو ينصف التراث العربي من خلال تعداد كل هذه الأسماء لتلك الكتب التراثية التي اشتركت في تناول قضية أثر البيئة في اللغة والأدب–، وكذلك نجده ينصف المنجز النقدي الحديث دون انبها، فقراءة التراث جعلت بافقيه يجد شيئا من خيوط نظرية نقدية، تناولها النقد الحديث، وصاغها بشكل منهجي.

3- أدب الكاتب لابن قتيبة

حيث استدعى بافقيه في كتابه **(كلكم يطلب صيد)** قضية من التراث، أوردها ابن قتيبة (المتوفى عام276هـ) في مقدمة كتابه أدب الكاتب، وهذه القضية تشبه إلى حد كبير حال الكثير من مثقفي الصالونات، و"كأنما كان ابن قتيبة يشير في مقدمة كتابه أدب الكاتب إلى ما ستعرفه، بعد ذلك بقرون، الصالونات الثقافية، في أوربا والغرب أولا، ثُمَّ في سائر العالم، ومن بينه الشرق العربي. استنكر ابن قتيبة في مقدمته المذكورة تلك، الاكتفاء مِنَ العلم والمعرفة والفلسفة بجملة مِنَ الكَلِم يسوقها المتأدب أو المتفلسف بين يدي حديثه، ثُمَّ يحسبها هي العلم والمعرفة والفلسفة، وربما كان الولع بجديد المصطلح في القرن الثالث الهجري –حيث عاش ابن قتيبة– قد بلغ مبلغا عظيما، نجد شيئًا مِنْه، ليس عند هذا المحدّث الأديب الناقد، فحسب، ولكننا نمسك بآثار منه طريفة فيما تناثر في كتب الجاحظ ورسائله، وفيها يسوق هذا الكاتب العبقري نقداته بألوان مِنَ السُّخر، لكنَّ ذلك السُّخر اللاذع المر يكشف لنا الشَّأْو الذي بلغه الشغف بالمصطلح والولع به"،[41] وكتاب ابن قتيبة هذا يدور حول مسألة تربية الملكة الأدبية، وثقافة الكُتَّاب وإرشادهم وتعليمهم ، وعده ابن خلدون في مقدمته من أركان الأدب الأربعة حيث قال: "سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها".[42] ومن المؤكد أن هذا الكتاب، كان له الأثر العميق في إرشاد بافقيه، وتعليمه في أمور الكتابة.

وفي سياق ذكر كتب الأدب الأربعة، كثيرًا ما يستشهد بافقيه بما ورد من أشعار في كتاب الكامل للمبرد، منها قول الشاعر:

لقـــد زاد الحيـــاة إلـــيَّ حبًّـــا بنـــاتي إنهـــن مـــن الضِّـــعاف
مخافـة أن يـرين البـؤس بعـدي وأن يشـربن رنقًـا بعـد صـافِ[43]

وذلك عند حديثه عن محمد سعيد طيب، عندما هادن الحياة، بعد خروجه من السجن، واطمأن به المقام" فتزوج وصار له من الزواج بيت وأسرة وأبناء، وحق لزوجه وأبنائه أن يعيش بينهم، ويسعدوا في كنفه، ولا عيب عليه إن خشي عليهم الضياع، لو أنه سجن أو اعتقل"[44]

ج– التراث اللغوي

إن من جميل أثر التراث على بافقيه؛ ما يظهر في حنينه للماضي المتمثل في طفولته، وذلك في مقالته الموسومة بـ" قارئ لم تلوثه الكتابة" يقول: من يعيدني إلى تلك الشوارع الترابية التي كنتُ أخطوها، وأنا أردد ما استظهرتُه مِنْ أشعار؟ وحِينَ أَثُوب إلى البيت أُرَدِّد خلف أبي منصور الثعالبي كلاما لا يزال يسكُن ذاكرتي، عنْ فَرْق ما بين «الخوان» و«المائدة»، ..."[45]، فكتاب الثعالبي (المتوفي 429) **(فقه اللغة وسر العربية)** من المعاجم اللغوية الحافل بذخائر اللغة وأصولها، متعدد الأبواب والفصول، قد لا تأتي قراءته لأي أحد في عمر مبكر، لكن يبدو أن بافقيه لم تثنه أبواب الكتاب الضخمة عن قراءته، وهذا دلالة على أنه قارئ متمكن منذ الصغر، وبافقيه لم يذكر في مقالته اسم الثعالبي فحسب، وإنما أورد ما سكن في ذاكرته من أبواب هذا المعجم، وهو الباب الثالث في الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحْوالها في الفصل الأول: "لا يُقالُ كأسٌ إلاّ إذا كان فيها شَرَاب وإلا فهي زُجَاجة. ولا يُقَالُ مائدةٌ إلاّ إذا كان عليها طَعَامٌ وإلاّ فهي خِوَان [46]". وهذا نابع من سعة الاطلاع، وعمق أثر التراث وتأصيله لدى الناقد.

وقد تناول بعض القيم النقدية في التراث، فتحدث عن العلاقة الوثيقة والصلة المتينة بين الأدب والمال، وكيف أن أثر المال على الأدب شديد في تبدل أحواله من عصر إلى آخر، وكيف أنه جعل للنقد معايير اتفق عليها النقاد، تنبئ بشيء من الظلم، وأن الشاعر قد يُنزّل مرتبة لا تليق به بسبب عدم اتقانه المديح، "وأنْ نَعْرِف أي أثر تركه البلاط في أحكام النقاد، فعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك، والرشيد والمأمون، وسواهم مِنَ الملوك والأمراء = أنشأوا جملة مِنَ القِيَم النَّقْدِيَّة التي ما انفك النقاد يُبْدِئون فيها ويعيدون ويكفيك أنْ تَعْرِف أَنَّ نقاد ذي الرمة أخرجوه عن طبقة الفُحول، وهو الشاعر المِفَنّ، لأنَّه لَمْ يَكُنْ لِيُحْسِن المديح، وأنتَ تَعْرِف أن المديح هو طلبة الملوك والأمراء، وما نزلوا به عن رتبته إلَّا لأَنَّهُ لَمْ يَمْدَحْهُمْ ووقف شعره، أو كاد، على محبوبته مي"[47].

وقد أحسن بافقيه قراءة التراث، وأدرك أهمية المعرفة التراثية في بناء الذات الإنسانية، فقرأ كل ما وقع عليه من الإرث الثقافي القديم، فالمرجعية التراثية من المرجعيات التي تشكلت من خلالها رؤيته، وأسهمت في بلورة جهازه المفاهيمي، وكان لذلك التعاطي مع التراث؛ أثر في تغذية معارفه المختلفة والمتعددة.

ويمكن القول: إن التكوين الثقافي الأول لحسين بافقيه؛ هو التكوين القائم على التراث، أو الموسوعية التراثية، واللوذ بالتراث دلالة على القيمة الروحية والمعنوية له عند الناقد، وهذه القيمة نابعة من إيمانه بأن قراءة التراث عمومًا، والأدبي والنقدي على وجه الخصوص، هي الوسيط الذي يربط التراث بالمعاصرة، ويربط الحديث بأصوله التراثية.

الخاتمة:

خلص البحث إلى أن المرجعيتين الدينية، والتراثية (الأدبية واللغوية) شكلت عنصرا جوهريا في بناء الخطاب النقدي عند حسين بافقيه، لا بوصفهما إطارين تقليديين، بل باعتبارهما منبعين فاعلين في تشكيل وعيه الجمالي والمنهجي، حيث انبثقت عن وعي معرفي عميق بطبيعة الثقافة العربية، وبجذورها الدينية والحضارية، فقد أتاح له استحضار النص الديني والمدونة التراثية توسيع أفق القراءة النقدية، وربط الأدب بسياقه الثقافي والروحي.

هوامش البحث

1– هذا البحث مستل من أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ: جهود حسين بافقيه في نقد الخطاب الأدبي من عام 1420هـ–1443هـ.

2 – ابن منظور، محمد بن مكرم (1419) لسان العرب، تصحيح: أمين محمد، محمد الصادق، مادة: (ر.ج.ع) ج5، دار إحياء التراث، بيروت، ط3، ص 146.

3 – الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (1426) القاموس المحيط، مادة: (ر.ج.ع) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، ص720–721.

4 – مجمع اللغة العربية (1425) المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، ص331.

5 – المسيري، عبد الوهاب، (2010) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ط4، 2010، ص.

6 – الدغمومي، محمد، وآخرون، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، مجلة أفنان، تبوك، ع17، ذو الحجة 1430هـ، ص.

7 – إبرير، بشير(2003) مرجعيات التفكير النقدي العربي، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مج13، ج49، ص598.

8 – صمود، حمادي (1981) التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، د.ط، ص34.

9 – ينظر: بومنجل، عبد الملك (1431) البلاغة القرآنية بين ناقدين: عبد القاهر الجرجاني وسيد قطب، التجديد، مج 14، ع28، ص103.

10 – ينظر: بوهادي، عابد، تجليات الأثر القرآني في تطور النقد العربي، جامعة ابن خلدون، ص 131.

11– الزهوري، بهاء الدين (198 6) أثر القرآن الكريم في نشأة النقد الأدبي، مجلة نهج الإسلام، وزارة الأوقاف، مج7، ع 25، ص43.

12 – سلام، زغلول محمد (د.ت) أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، مصر، ط1، ص357.

13 –الجاحظ، عمرو بن بحر أبو عثمان(1423) البيان والتبيين، ج1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص 115.

14 – بنيس، محمد (1979) ظاهرة الشعر العربي المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، ط1، ص 26.

15 – بافقيه، حسين (2009) ذاكرة الرواق وحلم المطبعة: أصول الثقافة الحديثة في مكة المكرمة، دار المؤلف، ط1،ص 23.

16 –بافقيه، ذاكرة الرواق وحلم المطبعة، ص35.

17 – عواد، محمد حسن(1433) خواطر مصرحة، حرره وقدم له: حسين محمد بافقيه، جداول للنشر والتوزيع، لبنان، ط2، ص 14.

18 – شبل محمد، عزة (2009) علم لغة النص: النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، ص 79.

19 – بافقيه، حسين (1439) أفئدة من الناس: فصول في أدب الحج وثقافته، مركز عبد المحسن القحطاني للدراسات الثقافية، جدة، ط، ص10–11.

20 – السنيدي، عبد العزيز راشد(2008) معجم ما ألف عن مكة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض.

21 – هود : 81.

22 –يوسف: 51.

23 – بافقيه، حسين (2014) العيش في الكتابة: دراسة في نقد عبد الله عبد الجبار، دار المؤلف، بيروت، ط1، ص 23–24.

24 – بافقيه، أفئدة من الناس، ص 139.

25 – انتقل وظيفيا إلى وزارة الحج والعمرة، وعمل رئيسا لتحرير مجلة الحج والعمرة في الفترة من 1423هـ–1426هـ، ينظر: دارة الملك عبد العزيز (1435) قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، ج 3، ص 1302

26 – بافقيه، أفئدة من الناس، ص 9.

27 – الترمذي، محمد بن عيسى (1975) سنن الترمذي، تحقيق: محمد أحمد شاكر وآخرين، ج5، مطبعة المصطفى البابلي الحلبي، القاهرة، ط2، ص 722، ح 3925.

28 – بافقيه، حسين (2009) طه حسين والمثقفون السعوديون، ، دار المؤلف، بيروت، ط1، ص 270.

29 – بافقيه، حسين(2017)كلكم يطلب صيد: فصول أدبية ومقالات ثقافية، كنوز المعرفة، جدة، ط1، ص 56.

30 – بافقيه حسين(2017) تهامة وطني: محمد سعيد طيب والثقافة، الانتشار العربي، بيروت، ط1، ص 137.

31 – هارون، عبد السلام محمد(1435) التراث العربي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الإصدار الثمانون، ص 22.

32 – العمري، أكرم ضياء(1405) التراث والمعاصرة، سلسلة كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، ط1، ص 75.

33 – الربيعي، محمود(د.ت) من أوراقي النقدية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص 12.

34 – لقاء مسجل في برنامج اليوتيوت بعنوان: حسين بافقيه والمكتبة الأولى، نشر بتاريخ: 26شعبان 1443هـ، https://www.youtube.com/watch?v=m9fVr7PAFHw،

35 – بافقيه، حسين(2018) عطر النقد، نادي الطائف الأدبي، الطائف، ط1، ص 9. نقلًا عن الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 412.

36 –بافقيه، عطر النقد، ص14.

37 – بافقيه، عطر النقد، ص 15.

38 – بافقيه، عطر النقد، ص 23.

39 – عصفور، جابر (1991) قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، قبرص، ط1، ص11.

40 – بافقيه، العيش في الكتابة، ص 195.

41 – بافقيه، كلكم يطلب صيد، ص41.

42 – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (2014) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ج3، دار نهضة مصر، الجيزة، ط7، ص1129.

43 –بافقيه، تهامة وطني، ص 123، نقلا عن: المبرد، الكامل، ج3، ص 1082.

44 –بافقيه، تهامة وطني، ص 122.

45 – بافقيه، كلكم يطلب صيد، ص 155.

46 –الثعالبي، عبد الملك بن محمد أبو منصور(1422) فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط1، ص 34.

47 –بافقيه، كلكم يطلب صيد، ص28.

المصادر والمراجع:

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (2014) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ج3، دار نهضة مصر، الجيزة، ط7.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (1419) لسان العرب، تصحيح: أمين محمد، محمد الصادق، ج5، دار إحياء التراث، بيروت، ط3.
- الترمذي، محمد بن عيسى (1975) سنن الترمذي، تحقيق: محمد أحمد شاكر وآخرين، ج5، مطبعة المصطفى البابلي الحلبي، القاهرة، ط2.
- الربيعي، محمود(د.ت) من أوراقي النقدية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط.
- السنيدي، عبد العزيز راشد(2008) معجم ما ألف عن مكة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض.
- العمري، أكرم ضياء(1405) التراث والمعاصرة، سلسلة كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، ط1.
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (1426) القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8.
- المسيري، عبد الوهاب، (2010) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ط4.
- **بافقيه، حسين:**
- (2009) طه حسين والمثقفون السعوديون، دار المؤلف، بيروت، ط1.
- (2014) العيش في الكتابة: دراسة في نقد عبد الله عبد الجبار، دار المؤلف، بيروت، ط1.
- (2017) كلكم يطلب صيد: فصول أدبية ومقالات ثقافية، كنوز المعرفة، جدة، ط1.
- (2018) عطر النقد، نادي الطائف الأدبي، الطائف، ط1.
- باكلا، محمد حسن وآخرون (1983) معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، مراجعة: محمد حسن باكلا وآخرين، مكتبة لبنان، بيروت، ط1.
- بنيس، محمد (1979) ظاهرة الشعر العربي المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، ط1.
- دارة الملك عبد العزيز(1435) قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية، ج 3
- سلام، زغلول محمد (د.ت) أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، مصر، ط1.
- شبل محمد، عزة (2009) علم لغة النص: النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2.

- صمود، حمادي (1981) التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، د.ط.
- عصفور، جابر (1991) قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، قبرص، ط1.
- عواد، محمد حسن(1433) خواطر مصرحة، حرره وقدم له: حسين محمد بافقيه، جداول للنشر والتوزيع، لبنان، ط2، ص 14.
- مجمع اللغة العربية (1425) المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4.
- هارون، عبد السلام محمد(1435) التراث العربي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الإصدار الثمانون.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد أبو منصور(1422) فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط1.
- الجاحظ، عمرو بن بحر أبو عثمان(1423) البيان والتبيين، ج1، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

المجلات:

- إبرير، بشير(2003) مرجعيات التفكير النقدي العربي، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مج13، ج49.
- الدغمومي، محمد، وآخرون، كتاب نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، مجلة أفنان، النادي الأدبي بتبوك، ع18، ذو الحجة 1430هـ.
- الزهوري، بهاء الدين (198 6) أثر القرآن الكريم في نشأة النقد الأدبي، مجلة نهج الإسلام، وزارة الأوقاف، مج7، ع 25.
- بومنجل، عبد الملك (1431) البلاغة القرآنية بين ناقدين: عبد القاهر الجرجاني وسيد قطب، التجديد، مج 14، ع28.
- بوهادي، عابد، تجليات الأثر القرآني في تطور النقد العربي، جامعة ابن خلدون.

المواقع الإلكترونية:

- لقاء مسجل في برنامج اليوتيوت بعنوان: حسين بافقيه والمكتبة الأولى، نشر بتاريخ: 26شعبان 1443هـ، https://www.youtube.com/watch?v=m9fVr7PAFHw